إهداء

إلى أمي في البدء والانتهاء.....
وأخي.....
أبي وزوجتي وإخواني وأخواتي وأبنائي...
وأنت أيها الباحث, أيها الإنسان...

obeikandl.com

obeikandl.com

. . . الوقت قُبيل الغروب بقليل.

ليس بجديد أن يُخيم الهدوء على القصر على هذا النَّحو, يلفه بهاء وغموض ومهابة.

في صالة القصر الرَّحبة, يجلس "فايز" على كرسي عتيق منزوي, يداعب أزرار الكمبيوتر المحمول, الموضوع على منضدة صغيرة مواجهة, غارقًا عن وجوده الهش إلى عالم افتراضي بديل على صفحات التَّواصل الاجتماعي!!

من حركة أصابعه الرَّفيعة السَّريعة, وتعبيرات وجهه المتحفزة- يبدو واضحًا أنَّه يفرغ من أمر ما على عجل.

خلف اللِّحية النَّابتة, والعينين الغائرتين, والنَّظرات الزَّائغة, وعظمتي الوجنتين البارزتين- وسامة جلية. ورغم النُّحول الَّذي امتص نضارة الجسد- قوام رشيق متناسق.

قبل ساعتين, خرج "فايز" لا يلوي وجهة بعينها, تنتابه رغبة طارئة نادرة في التَّفسح, أن يرتوي من وجوه النَّاس عله يزهدها ويعفوها إلى الأبد. لم يخطر له أنَّها بالفعل اللَّقطة الأخيرة في الفيلم الممتد, وأنَّها رغبة لا يفهم دوافعها جاءت لاكتمال الحبكة وتمام البناء.

لم يذهب بعيدًا, امتنعت قدماه أن تقوده لمدى لا يألفه, جعلت تطوف المنطقة السَّكنية المحيطة بالقصر. بيوت شعبية, متراصة, متلاصقة, تنتصب في عشوائية سافرة بجوار القصر الشَّامخ من النَّاحية الغربية. عصبة دجاج ضامر البدن منتوف الرِّيش في صورة جماعية غاصة بالتناقض مع ديك شركسي مهيب الطلة جميل القد. إنَّه ذاك الفقر المُدقع المُحدق بعين الضَّغينة لثراء انتصب على هامته عبر أزمان غابرة. وكان ثمَّة أبراج سكنية تتطاول من النَّاحية الشَّرقية, إنَّه ذاك الثَّراء "مُحدث النَّعمة" ينظر بعين التَّعالي لعهد بائد, ذهب وولى إلى غير رجعة.

عيون أهل المنطقة تنم عن معرفة به! يكتشفها الآن معرفة أبعد ممَّا يظن, وأعمق ممَّا يخطر له! ربما هناك من ينقل خبره إليهم! لا يوجد غير "ياسين"! من طبع "ياسين" التَّحدث كثيرًا, كما أنَّه يعلم يقينًا أنَّه يكرهه. الكراهية ماكينة عفية تلوك مادتها بنشاط, ما يجعله مادة ثرية لأحاديثه التي لا تنتهي! وربما هم من يتابعون ويتقصون الخبر من تلقاء أنفسهم؛ يدفعهم الفضول ليعرفوا ما آل إليه صاحب القصر الفخيم!

جلس إلى مقهى مجاور, طلب فنجانًا من القهوة, يتحاشى النَّظر إلى النَّاس, وإذا ما فعل استكشافًا؛ فبشكل خفي من أسفل أهدابه الطَّويلة. في عينيه تردد وحيرة, يلون وجهه امتقاع وصفرة كما حال الموتى. وعلى الجانب الآخر, يتطلع النَّاس إليه بطريقة أقرب ما تكون إلى الوقاحة, وكأنَّهم يُشاهدون سركًا مُتنقلًا أو حلقة من مسلسل شائق الأحداث, تشي أعينهم حقًا بمعرفة جمة, لا يخلو الأمر من همز ولمز وابتسامات قلوب قاسية تتشفى في قلب بائس حزين. لم يعد ثمَّة مواربة في الأمر مثلما كان في قديم العهد بينه وبينهم. النَّظرة القديمة التي كانوا يرمقونه بها استحياءً؛ كلما بان طيفه في سيارته المرسيدس, يقودها سائقه الخاص, ذاهبًا إلى الشَّركة والمصنع أو عائدًا منهما. نظرة الخضوع والإذعان لسيدٍ مُهابٍ يمر بالعوام في الغداة والرَّواح! أيام كان صاحب كلمة مسموعة وأمر ونهي, يجدون الطَّلب والسعي في التماس السَّبيل إليه؛ لعل أحدهم يظفر بعمل في شركته ومصنعه أو ربما خادمًا بالقصر!

انقلبت الآية. ضاع كل شيء واندثر إلى غير رجعة, وعما قليل سوف تُنسج النِّهاية المفجعة لكل ما فات وانصرم من عزوأبهة, وكأنَّ الحياة تقتص في مقابل التَّرف الَّذي عاشه "فايز" وأسلافه يومًا, غير مكترثة أنَّه طوال عمره الَّذي ناهز الأربعين, ومنذ طفولته, كان شخصًا مغايرًا عن كل السَّادة الذين مروا بالقصر, بدءً من الجد التُّركي "طوسون" وانتهاء إليه, عبر حقب زمنية اقتربت من المائتي عام, عاش خلالها القصر عظيم الأحداث وجلل الأمور, وبشوات وبكوات ناموا حجراته ودهسوا أروقته.

"فايز" كان أكثر الجميع إنسانية, وهنا وحده لب المأساة!

"فايز" مستكين تمامًا, لا يبادل نظراتهم التي أضحت مباشرة, نافذة للروح, مستقرئة للقلب- بنظرة خضوع مذعنة طيعة مثلما كانوا ينظرونه في الماضي, ولكنَّ نظرته إليهم أقرب ما تكون إلى الخجل. من يعلم أنَّ العينين مرآة الرَّوح؛ فيخفضهما رغبة ألا يسترسلا في فضح المكامن الخفية في حجرات القلب السِّرية البعيدة.

ولهذا, ومع أسباب أخرى تضافرت؛ كان يُؤثر العزلة والبُعد.

هذه الرَّغبة الطَّارئة اليوم في الخروج ورؤية النَّاس هي ما حادت به عن جادة طريقه. طوال أيام وشهور والقصر غارق في الظُّلمة ليلًا, بلا قبس ضوء شارد يضيء ظلمة ليله البهيم, ومناجاة محمومة لا تنتهي إلا بانسكاب أول شعاع من ضوء الشَّمس وتخلُق الصَّباح منهيًا صخب وضجيج ليلة من ليالي "فايز" العجائبية الغامضة! ومن ثُمَّ يأتي النَّهار, والعالم الافتراضي على مواقع التَّواصل الاجتماعي حتى حلول المساء. والنَّوم شذرات متقطعة تقنصه رغمًا عنه بين هذين العرضين المستديمين!

صارت غرابته محل يقين, ومهابته ماضي اندثر, وحكايته ملهاة يتسل بها النَّاس في مجالسهم المسائية على المقاهي المتاخمة للقصر, يستزيدون من "ياسين" الَّذي يتناوب إليهم بين حين وآخر.

جاءه هاتف أنَّ النَّاس لا يتقبلون بسهولة من يشذ عن القطيع, من يتملكه نازع مختلف عما عاهدوه؛ فكر, مشاعر, رغبة!! أي شيء يخرق نطاق المُسلم! أن يبدو ثري مثله كالمجاذيب؛ لا يبهره المال والثَّراء, يعيش في عالم منفصل مشيدة أركانه من الخيال, يميل للوحدة والانزواء, ولا يتقبل التَّعايش مع النَّاس ولا الأمر والنَّهي فيهم, يترك سيارته المرسيدس وقصره المنيف ويأتي يتناول القهوة الرَّديئة على مقاهيهم التي تنضح جدرانها بالرَّطوبة والعفن؛ بشعر أشعث وعينين زائغتين.

الآن يعلم شعور من يسيرون في متاهات الغرابة!

الطَّبيعة النَّافرة عن القطيع تقود إلى طريق مغاير عن الطَّريق العام لبني البشر, ولكن النَّاس لن يمنحونه السَّلام, سيجد في كل نظرة اتهام بالغرابة! بالتَّشكيك في قواه العقلية! خيوط عنكبوتيه لزجة يفرزها النَّاس جميعًا,

ويلفونها من حوله بحذق ولؤم شديدين, ويجذبونه إلى جُب عميق يضيع في الظُّلمة الدَّامسة مخرجه الوحيد. لن تأخذهم مثقال ذرة من شفقة ليُسلِّموا أنَّ المغايرة مقبولة بين قطيعهم المُدجن.

يرى هذه النَّظرة المستغربة في عين "ياسين" طوال الوقت, في عين العاملين بالمصنع والموظفين بالشَّركة, وفي عيون أناس لا يعلمهم, ومن المؤكد أنَّهم يعلمونه ويعرفون الكثير من ملهاته الكبرى!

اكتفى من هذه الجرعة الدَّسمة على روحه الهشة, فاض بئره حتى ارتوت كل رغبة طارئة بتنفس عبق النَّاس والحياة خارج جدران القصر. قرر الانتهاء من جولته بمجرد الفراغ من فنجان القهوة الَّذي لم يجد له طعمًا. أخذ نظراتهم المصلوبة على بدنه الرَّقيق وانفلت هاربًا. يلمح صورته على زجاج السَّيارات وواجهات المحلات. يقر في نفسه أنَّ النَّاس معذورون فيما تأخذه إليه عقولهم! من يصدق أنَّ هذا المتسكع المجذوب هو حفيد الجندي الشُّجاع "طوسون"! الجد الأكبر الَّذي جاء من الأستانة وحارب مع محمد علي باشا والي مصر, وشيد القصر ليستكين به بعدما أصابه العرج!

بمجرد أن دلف إلى القصر ابتدره الخادم العجوز "ياسين" برغبته في الذهاب إلى مسكنه البعيد على أطراف المدينة, أومأ بالموافقة دونما كلمة, وعكف على الكمبيوتر المحمول يستكمل طقسه النَّهاري ريثما يحُل المساء.

ففي المساء يحدث ما لا يستوعبه عقل!

أغلق الكمبيوتر المحمول, اتجه صوب الشُّرفة الشَّرقية المطلة على الحديقة, المواجهة لشجرة الكافور العملاقة وبيت الجنايني الرَّابض أسفلها, وأخذ نفسًا عميقًا. بعد لحظات التَّأمل جذب الكرسي العتيق قرب الشُّرفة, مواجهًا لها, وجلس مستندًا على مرفقيه, متصلب النَّظر على الأفق البعيد. وها الدَّنيا تطرق أبواب اللَّيل, تهيأ لانقشاع تام لآخر ذرة من ذرات الضَّوء.

اتسعت حدقتاه وتملكه الشَّغف. انفصل عن الزَّمان والمكان وتوحد مع شيء لم يستبان بعد, يعلم يقينًا أنَّه في الطَّريق, بل هو يستدعيه الآن.